أسواق بيروت بين الأمس واليوم

زهير دبس

ربط المؤرخون نشأة الأسواق بدور العبادة، إذ كان التجار في غابر الأزمان ينقلون بضائعهم على ظهر الدواب، ثم يعرضونها أمام الكنائس والمساجد والأديرة ليتسنى لهم بيعها. في كتابه تاريخ بيروت الحديث (٢٠١٩)، يذكر محمد أبو الحمايل أن التجمع الكبير لدور العبادة الإسلامية والانجيلية والكاثوليكية والأرمنية والأرثوذكسية والمارونية في وسط بيروت شكل المنطلق الأول لتأسيس الأسواق فيها.

ثغر الحبيب وطعم حلو البحصلي

شكّلت الأسواق التجارية في بيروت العصب الاقتصادي الأساسي للمدينة، وارتبط نموها بالتحولات السياسية التي عاشها لبنان في حقبات زمنية مختلفة، وظلت في معظم المراحل تلبي حاجات سكانها وزوارها الذين كانوا يقصدونها من الأرياف ومن مختلف الدول العربية والأجنبية.

تأخذنا الإضاءة على عدد من الأسواق القديمة، إلى عالم البطء، إلى زمن ما قبل الآلة والتكنولوجيا، قبل وسائل النقل الحديثة، إلى زمن كانت فيه الأسواق تقع داخل سور المدينة، الذي شكّل لعقود طويلة حدًا فاصلاً بين بيروت المأهولة بسكانها، وتلك التي تغطيها الكثبان الرملية. نكتشف في هذه الإضاءة أن وظائف الأسواق في ذلك الزمن كانت توازي وظائفها في يومنا هذا، وإن كان عبر وسائل أقدم.

ـ سوق الدلالين: نتعرف مع السوق المذكور الذي تعود ملكيته لقيصر ديمتري، إلى الشكل السابق لفن الإعلان الذي كان لا يزال شفهيًا. كانت وظيفة الدلالين التجوال في الأسواق الأخرى، والمناداة على السلع والبضائع والترويج لها، مدح ميزاتها وجودتها والبلاد المنتجة لها، وتاريخ وصولها إلى بيروت.

توضح لنا الذاكرة الموثّقة لسوق الدلالين، أبرز تحوّلات فن الإعلان، من المناداة الشفهية، إلى الصوت والصورة، من خلال رصد عدد من المناشير التي طبع عليها صورة البضائع، من بينها ما خص استيراد أولى ماكينات الخياطة "سنجر"، وإعلان آخر عن افتتاح محل خياطة في سوق الجميل لسيدة تدعى برجيس، التي جلبت معها من باريس أشهر الأزياء، وأعلنت عن قدرتها على تحقيق مطالب السيدات، من "براقع من أحسن جنس وألطف زي، تنانير حرير، مشدات، وبياض وفساطين مثناة". واعلان يخص سوق الزجاج لصاحبه بيهم عيتاني الذي اشتهر ببيع "زجاج قناديل الكاز المستوردة من النمسا وفرنسا"، وسرائر حديدية مرتفعة عن الأرض، التي كان اقتناؤها آنذاك في بيروت دليلاً على اليسر المادي وتتبع الموضة الحديثة.

سوق الشعر: كان في بيروت أيضًا سوق خاص للشعر، وللسوق المذكور وظائف اجتماعية واقتصادية يستفيد منها أهل المدينة، فعدا عن كونه مكانًا رائجًا للأمثال الشعبية، والكنايات والطرائف وأخبار المشاهير، كان أيضًا قبلة الشعراء الذين يتقاطرون اليه من كل حدب وصوب، وينظمون قصائد من الشعر الموزون لمختلف المناسبات الاجتماعية، أفراح، نجاحات، تولّي منصب مهم، ولادة ذكر، افتتاح محل، عودة غائب من السفر، حج، أو وفاة.

كان التجار وأصحاب المحال التجارية يقصدون سوق الشعر ليتوسلوا القصائد بهدف مدح بضائعهم وتجارتهم، ففي هذا السوق نظم الشاعر أحمد شوقي أبياتًا في مديح حلويات البحصلي، شاعت في طول البلاد وعرضها، ومما جاء فيها:
قالوا إذا جبت البلاد محدثًا
عن حلو بيروت لأفخر معمل
اثنان حدث بالحلاوة عنهما
ثغر الحبيب وطعم حلو البحصلي.

أهمية حدث افتتاح محل للحلويات في بيروت آنذاك، دفع الشاعر عبد الله البستاني للاستعانة بأبيات من شوقي مع تغيير طفيف:
ذا معمل للحلويات ترى به/ ما لا تراه بغير هذا المعمل/ شيئان لم اظفر بأطيب منهما/ وصل الحبيب وطعم حلو البحصلي.

ظلت الأبيات المذكورة مرفوعة في عدد من فروع محال البحصلي لعقود طويلة، ولا يزال عدد منها مرفوعًا حتى يومنا هذا.

من الانتداب الى الجمهورية
إبان انتدابهم على لبنان في عشرينيات القرن المنصرم، استحدث الفرنسيون شارع المعرض، الذي ضم عدداً من الأسواق. منذ عهد الاستقلال مرورًا بحقبة الستينيات التي وسمت بالذهبية، شهدت الأسواق ازدهارًا غير مسبوق، وشكلت علامة فارقة في تاريخ لبنان الاقتصادي.

يضيق المجال هنا عن ذكر تاريخ كل سوق، والنشاطات التجارية التي كانت تجري فيه، إلا أن لمحة مختصرة تقدم صورة وافية عنها.

أسواق للعائلات ولكل السلع

اكتسب عدد من الأسواق في بيروت اسمه من ملكية العائلة المؤسسة له، من بينها أياس، سرسق، بسترس، الجميل، التويني، سيور، العيتاني، تيان وغيرها. يبلغ عدد محال سوق سرسق حوالي المئتين، وكان مقصدًا لأبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة، ويباع فيه مختلف أنواع الأقمشة، وكل ما يتعلق بالخياطة والتطريز وإكسسوارات الثياب الخاصة بالنساء. أما سوق الطويلة فكان مقصدًا لأبناء الطبقات الميسورة، اشتهر السوق المذكور بالبضائع المستوردة من الخارج، وكان التبضع منه مصدر تمايز اجتماعي لقاصديه، ففيه محال للمجوهرات والساعات، والعطور وأدوات الزينة والتجميل، وصبغات الشعر والملابس الجاهزة الخاصة بالأطفال والنساء، التي تعرضها محلات الأخوين النمساويين كولدمبرغ.

في سوق أبي النصر كانت تُباع السمانة والأدوية الزراعية والعطارة، وفيه محلات القباقيبي المخصّصة للمصنوعات الخشبية، وأدوات المطبخ والكراسي. في سوق الصاغة كل أنواع الذهب والمجوهرات من مختلف الطرز، وفي سوق الأرمن تباع الأحذية الجاهزة وتحت الطلب، سوق الوقية للقماش بالوقية، سوق الصيفي للخرضوات والحدادة.

لم يكن قاصد أسواق بيروت في ستينيات القرن العشرين المنصرم، يحتاج لزيارة مكان آخر ليحصل على حاجياته، إذ كانت البضائع تتكدّس فيها من كل صنف ونوع، الحسبة لبيع الخضار، البازركان لبيع لوازم الخياطة وزينة التنجيد، اللحامين، السمك، النورية، المنجدين، الزجاج، خان البيض، ناهيك عن الأسواق المتخصصة ببيع المؤونة التي كانت مقصدًا للعائلات من كل المناطق، نظرًا لأسعارها التنافسية. يتوافر فيها مختلف أنواع الحبوب والزيت والسكر والأرز والعدس والألبان والأجبان والطحين، ومواد صنع الحلوى والطحينة الفلت، وغيرها من المواد الاستهلاكية، التي تعتمد العائلات عليها بشكل أساسي.

من أسواق بيروت سنة ١٩١٩

تعا يا كيس، تعا يا سل

كانت الأسواق التجارية مقصدًا للكثيرين بهدف تزجية أوقات الفراغ والسير بين أزقتها وزواريبها، والتأمل في واجهات محالها، وغالبًا ما تكون نهاية نزهة من هذا النوع، شراء كمية من البضائع والسلع من غير حسبان، فما تعرضه المحلات آنذاك، كان موضع إغراء لا يقاوم، ولم تكن الحمولات الثقيلة بحاجة إلى أكثر من مناداة من صاحب البضاعة "تعا يا كيس"، "تعا يا سل". هذه العبارة تكفي لتجمع عددًا كبيرًا من باعة الأكياس وحمالي السل، الذين كانوا يعرضون خدماتهم لإيصال بضائع الزبائن إلى حيث يريدون، ويتقاضون مقابل ذلك قروشًا قليلة.

أسواق من الذاكرة

شكلت الحرب الأهلية، التي اندلعت عام ١٩٧٥، الضربة القاضية للوسط التجاري في بيروت. أصبحت الأسواق، لشدة ما أصابها من دمار، أثرًا بعد عين. مع إعلان انتهاء الحرب في تسعينيات القرن العشرين والبدء بإعادة إعمار وسط بيروت. شّيدت أسواق تجارية جديدة بطابع هندسي حديث، حمل عدد كبير منها أسماء الأسواق القديمة نفسها. سرسق، أياس، الطويلة، النورية (...). أسماء نستذكر معها أسواق بيروت القديمة التي كان بعضها يتشابك بالبعض الآخر كشرايين القلب وتضخ دمًا في جسد المدينة وتحييها..

المراجع:

- محمد صالح أبو الحمايل، "تاريخ بيروت الحديث، التراث العادات والتقاليد الأسواق السينما المطابع والأحياء" (٢٠١٩).
- جمعية تراثنا بيروت.
- عبد اللطيف فاخوري، منزول بيروت، 2003